الطبقي والقومي والتوازن بينهما

د. ماهر الشريف، **الشيوعية والمسألة القومية في فلسطين ١٩١٩ ــ ١٩٤٨: الوطني والطبقي في الثورة التحررية المناهضة للامبريالية والصهيونية**، بيروت: مركز الأبحاث ــ م.ت.ف.، ١٩٨١، ٢١٦ صفحة.

سبعة فصول واربعة عشر ملحقا تشكل مادة هذا الكتاب. وهو يضم أحدث بحث بين بحوث ودراسات عديدة تناولت الموضوعات المتصلة بالشيوعيين الفلسطينيين قبل عام ١٩٤٨، وعالجت جوانب مختلفة من تاريخهم وافكارهم وممارساتهم. ولعلّ هذا الكتاب، بين ما صدر الى الآن خارج فلسطين، الأشد تركيزا، والأكثر غوصا في عمق المسألة التي يحددها عنوانه.

وقد افلح الكاتب، الى حد كبير، في تكثيف بحثه (١٣٦ صفحة)، ثم اغناه بعدد وفير من الملاحق التي تشتمل على نصوص اصلية (بقية صفحات الكتاب). وبهذا، اقتصر البحث «على عرض وتحليل مواقف الحركة الشيوعية الفلسطينية من المسألة القومية في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني»، وتجنّب الخوض في تاريخ الحركة «إلّا بمدى ارتباطه بموضوع البحث المحدد»، كما يقول صاحبه في المقدمة (ص ١٠). وهذا الهدف المحدد والواضح للبحث، اقترن بوضوح اشكاليته وتحديدها؛ وقد لخصها الكاتب في السؤال التالي: «كيف استوعب الشيوعيون الفلسطينيون طبيعة العلاقة الديالكتيكية التي تربط بين الوطني والطبقي، او بين 'الطبقة' و'الأمة'، في الثورة التحررية المناهضة للامبريالية والصهيونية في كل مرحلة من مراحل تطور حركتهم» (ص ١١ و١٢). وهكذا، مضت فصول الكتاب السبعة للإجابة على هذا السؤال ولإظهار اوجه النجاح والاخفاق في صياغات الشيوعيين الفلسطينيين لخططهم وممارساتهم في مجال معالجة المسألة القومية، بجانبيها: العام والمتفرّد في فلسطين.

ففي الفصل الأول، أولى د. الشريف اهمية كبرى، ومحقة، لظروف نشأة الحزب في ظل التناقض القومي بين الحركة العمالية العربية واليهودية، وركّز خصوصا على وهم تبناه بعض فرقاء اليسار العمالي اليهود، وحاولوا اقحامه على المحاولات التي مهّدت لتأسيس الحزب، حين اعتقدوا ان بالامكان الجمع بين الصهيونية والاشتراكية، ثم بيّن كيف انحلّ هذا الوهم بالتدريج، وكيف انعكس تأثيره في المواقف والممارسات التي رافقت عملية التأسيس.

وفي هذا الفصل، ايضا، اوجز الكاتب علاقات الحزب الشيوعي الفلسطيني ومواقفه إزاء القوى السياسية الرئيسية الثلاث المؤثرة على الساحة الفلسطينية: الامبريالية البريطانية والحركة الصهيونية والحركة الوطنية العربية، وشرح الأسس النظرية التي انطلقت منها هذه المواقف؛ الخاطىء منها والمصيب.

وفي الفصل الثاني، عرض الكاتب محاولات الحزب الشيوعي، بعد نشأته وفي ظل ما يحمل من تأثيرات هذه النشأة، لحل معضلات المسألة القومية، انطلاقا من ان وحدة الطبقة العاملة، بعربها ويهودها، هي الأساس لهذا الحل.